مسلمو أوروبا : الاندماج والهوية

د. مأمون مبيض

مسلمو أوروبا والاندماج :

منذ عقد من الزمن كان كثير من المسلمين الذي يعيشون في أوروبا يستغربون بل ينتقدون من كان يتحدث عن اندماج المسلمين في المجتمع الأوربي ، وعن الإسلام الأوروبي أو مسلمي أوروبا . بينما غدا الآن هذا الموضوع حديث الساعة عند أغلبية المسلمين الذين يعيشون في أوروبا . وتغيرت المسميات من الحديث عن موضوع " المسلمون في أوروبا " فأصبح " مسلمو أوروبا " .

ولا شك أن لهذا التحول عند غالبية المسلمين أسباب متعددة ، وهي أسباب متداخلة ومتفاعلة مع بعضها البعض . ويمكن أن نذكر من هذه الأسباب :

• **أولاً** : تعمق التفاعل الطبيعي للمسلمين مع المجتمع الأوروبي في جوانب الحياة المختلفة ، ودخولهم غمار الحياة والممارسة في المؤسسات المدنية المختلفة كمدارس ومعاهد أبنائهم ، والتجمعات الثقافية المختلفة ، والأنشطة الاقتصادية والمالية ، والوسائل الإعلامية المتنوعة وغيرها . مما دعا هذا التفاعل المسلمين لإعادة النظر في أطروحاتهم وفهمهم للمفاهيم والمواقف الإسلامية التي أتوا بها من بلاد المنشأ ، فكان لا بد من وقفة ولا بد من إعادة النظر .

• **ثانياً** : الجيل الجديد ، " جيل الناشئين " الذي ولد ونشأ في المجتمعات الأوروبية ، والذي قام – وربما ما زال – بدور الوسيط بين المجتمعات الأوروبية

و " جيل الوافدين " . حيث امتلك هذا الجيل الجديد ، وبشكل أفضل من الجيل السابق ، أدوات الفهم والحوار الموضوعي لهذه المجتمعات بعيداً عن الإرث التاريخي وغيره ، وبعيداً عما يحمل الآباء من المواقف النمطية ، السلبية عموماً ، عن المجتمعات الأوروبية ، وعن الإنسان الغربي .

◆ **ثالثاً** : الجو السياسي المنفتح نسبياً في الغرب ، والذي ربما ازداد انفتاحه على " الأقليات " الدينية والعرقية بعد أن تبين للغرب أن " رحيل " هذه الأقليات " المهاجرة " عن أوروبا لم يعد حلاً ممكناً ، وبعد أن استعصت هذه الأقليات على " الذوبان " بالطريقة التي تمناها كثير من الغربيين . هذا الجو السياسي المنفتح نسبياً ، ولو كان اضطرارياً ، شجع المسلمين ونبههم إلى الإمكانات والحقوق المتوفرة لهم إن هم اقتربوا بشكل أكبر من المجتمعات الأوروبية المحيطة بها .

◆ **رابعاً** : المزيد من تدهور أوضاع الكثير من بلاد العالم العربي والإسلامي ، مما لم يشجع الكثير من المسلمين على " العودة " للبلاد التي أتوا منها للغرب . ولا شك أن هناك شريحة من هؤلاء المسلمين كان يحلم بأن يعود ، ولا بعد حين ، لوطن المنشأ ، إلا أن تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والقانونية والتعليمية وغيرها دفع كثيراً من هؤلاء لإعادة النظر في رغبتهم الأصلية ، فآثروا البقاء في الغرب ، مما اضطرهم لإعادة ترتيب أوراقهم ، وبالتالي لطبيعة علاقتهم بهذه المجتمعات الغربية .

◆ **خامساً** : التنامي المستمر ، وربما البطيء ، لقدرات التجمعات الإسلامية المنتشرة في المدن الأوروبية ، والتراكم الكمي من خلال السنين ، وفي الجوانب المختلفة الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية والثقافية والقانونية وعلى رأسها التجنس ، وبحيث دفعت هذه القدرات المسلمين ليفكروا بأهداف لم تكن لديهم سابقاً لغياب أو ضعف هذه الإمكانات والقدرات .

• **سادساً** : تضافر جهود المسلمين مع غيرهم من الأقليات الدينية والعرقية المختلفة ، وخلال عدد من السنوات من أجل تحسين الشروط المعيشية لهذه الأقليات ومنها المسلمة ، ومن أجل المطالبة بحقوقهم كأقليات تكوّن شريحة هامة من شرائح المجتمعات الأوروبية .

• **سابعاً** : تقدم أوروبا الحثيث في طريق التقارب الأوروبي ، حيث قطعت الدول الأوربية المختلفة شوطاً واسعاً في طريق الوحدة الأوروبية . وهذه الوحدة بالتالي دفعت المؤسسات الأوروبية للنظر في هوية وطبيعة كل من يعيش أو ينتمي لهذه المجتمعات الأوروبية ، سواء اللغة أو الديانة أو الثقافة وغيرها ، وانسحب هذا بشكل طبيعي على التجمعات المسلمة التي عاشت وتجنّست في هذه البلاد خلال عدة عقود من الزمن .

• **ثامناً** : وربما قد لعب المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث ، وغيره من المجالس الفقهية ، في مرحلة متقدمة ، دوراً مشجعاً وموجهاً للمسلمين ليصححوا ويحسنوا صلاتهم بالمجتمعات الأوروبية المحيطة بهم .

• **تاسعاً** : وربما كان هناك أيضا لأحداث ١١ سبتمبر/ أيلول دوراً مسرعاً في الفترة الأخيرة جداً ، وبالتأثير في آن واحد ، أولاً على المجتمعات والمؤسسات الأوروبية التي أدركت أنها قد تجاهلت الإسلام لعقود طويلة ، وأنه لم يعد بإمكانها الاستمرار في هذا التجاهل لشريحة كبيرة من المسلمين الذين يعيشون بين أظهرهم . وثانياً على المسلمين أنفسهم وما نسمعه اليوم في الدائرة الإسلامية من " ضرورة إعادة النظر في الخطاب الإسلامي " ، سواء كان هذا التحول عن قناعة وموقف مبدأي ، أو بسبب قانوني أمني . (يدرس الآن في بريطانيا مثلاً

قانون جديد يحيل للقضاء من يتحدث أو يكتب بطريقة تثير العداوة والبغضاء للمشاعر الدينية في المجتمع) .

مسلمو أوروبا والمشكلات :

بالرغم مما ذكرنا في البداية من تنامي قدرات المسلمين وإمكاناتهم الاقتصادية والتعليمية والاجتماعية وغيرها ، إلا أن هذا يجب أن لا يصرفنا عن إدراك الصورة الدقيقة للكثير من المشكلات والصعوبات والتحديات في كل هذه الجوانب وخاصة الاجتماعية منها والأسرية على وجه الخصوص . فمشكلات أبناء وشباب المسلمين كثيرة ومظاهرها متعددة لا تخفى عمن يدرك شيئاً من أوضاع مسلمي أوروبا . ولا بد من حشد الإمكانات وتوجيه الطاقات للتصدي للكثير من هذه المشكلات والصعوبات .

وعندما نتحدث عن مشكلات مسلمي أوروبا يفيد أن نفرق بين ثلاثة أنواع أو مستويات من هذه الصعوبات أو التحديات :

١- مشكلات وثيقة الصلة بالتجمعات المسلمة ولها علاقة مباشرة بنا ، ومثال هذا طبيعة موقفنا وتسامحنا وتعاملنا من " الآخر " ، ومنه كذلك مدى تماسكنا أو تفرقنا كمجموعة عقيدية وإيمانية واحدة ، ومنها كذلك نسبة الأميّة وغيرها .

٢- مشكلات هي أقرب لكون المسلمين أقلية من الأقليات ، وهي بالتالي مشكلات قد نشترك في كثير منها مع غيرنا من الأقليات المتواجدة في الغرب وبغض النظر عن ديانتها أو انتمائها العرقي .

٣- مشكلات تفرزها البيئة الأوروبية ، وليس لنشأتها علاقة مباشرة بالمسلمين ، إلا أنهم وبطبيعة الحال سيتأثرون بها كغيرهم ، ومثال ذلك معدلات البطالة ونوعية الخدمات الصحة والاجتماعية المختلفة .

مسلمو أوروبا والهوية :

يمكن ردّ الكثير من المشكلات التي يعاني منها كثير من المسلمين الذين يعيشون في أوروبا إلى صعوبات التكيف أو الاندماج في المجتمع الأوروبي ، وإلى قلقهم في كيفية التوفيق بين هويتهم الإسلامية وبين هوية الانتماء للمجتمع الأوروبي . ومن مظاهر هذه المشكلات طبيعة علاقة المسلم بالمجتمع الأوروبي ، والخلاف أو النـــزاع بين الأجيال داخل الأسرة الواحدة ، بين الأبوين الوافدين من جهة وبين الأولاد الذين ولدوا ونموا في الغرب .

وقد اشتدت حدّة هذا الصراع بين الانتماء للهوية الإسلامية وبين الانتماء للمجتمع الأوروبي بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ عندما سألت المجتمعات الأوروبية وبدرجات مختلفة ، عندما سألت المسلمين في أوروبا – وكذلك في أمريكا – أن يحددوا موقفهم من الانتماء للمجتمع الأوروبي . ففي بريطانيا مثلاً سئل المسلمون السؤال المربك والغير قابل للجواب " هل أنتم مسلمون أم بريطانيون ؟! " وكذلك سئلوا مثل ذلك في البلاد الأوروبية الأخرى .

إن السؤال غير الدقيق أو المغلوط سيؤدي بالطبع لجواب مغلوط .

ونحن ندرك خطأ مثل هذه الأسئلة عندما نذكر أن الانتماء للإسلام لا يتعارض مع الانتماء لبلد معين أو قومية معينة . وكما أن هناك المسلم الهندي والمسلم العربي والمسلم الفلبيني ، فهناك أيضا المسلم البريطاني والمسلم الأمريكي والمسلم الفرنسي ..

ويمكن الخروج من هذه الدائرة المعيبة أو هذا الصراع بفهم طبيعة الهوية والانتماء . فالانتماء والهوية أمر معقد ومتعدد الجوانب والمستويات ، ولم يعد الحديث عن " الهوية " وكأنها شيء مفرد وبعد واحد ، وإنما أصبح الآن عن " الهوية المركبة " ، حيث أن هناك جوانب متعددة وأبعاد مختلفة للهوية والانتماء . ولتبسيط الأمر يمكن أن نذكر ثلاثة جوانب رئيسية للهوية :

١–الهوية الدينية : وهي عند المسلم الأساس والمعتمد الأول ، وحيث يتلاقى من خلالها مع إخوانه في العقيدة في كل بلد وفي كل أرض . ومن هنا تأتي

عظمة الإسلام في مفهوم الأمة الإسلامية . ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ... ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

٢- الهوية العرقية : حيث يعود الإنسان في نشأته الأولى لأرض معينة أو بلد معين ، كأن يكون مثلاً مصري أو تركي أو ماليزي أو صيني . ويأتي مع هذه الهوية كل ما يميّز هذا الانتماء العرقي من العادات والتقاليد المحلية المتمثلة في المأكل والمشرب والملبس واللغة واللهجة وغيرها من الظواهر الأخرى المميّزة لبلد أو ثقافة معينة . ومن هنا يأتي أيضاً أحد جوانب قوة الإسلام أنه حيثما انتشر في الأرض فإنه احترم الثقافات المحلية وحافظ عليها بل احتفل بها وتبناها في منظومته الإسلامية . ومن هنا فإننا نتحدث أحياناً عن الثقافات الإسلامية المتنوعة والغنيّة .

٣- الهوية الاجتماعية : وهي ما يميّز الروابط التي تربط الإنسان بالمجتمع الذي يحيا فيه حيث يؤثر فيه ويتأثر به . وتتعلق هذه الهوية بما يميّز مجتمعاً عن آخر كالعرف والتاريخ والقانون وطبيعة البنية الاجتماعية و النظام التعليمي والخدمات المختلفة .

والترتيب السابق في ذكر الجوانب الثلاثة للهوية ترتيب مقصود ، حيث تأتي الهوية الإيمانية والدينية بالنسبة للمسلم على رأس الأولويات . وينتج عن هذا أن المسلم قد يرفض ما يأتي به الانتماء العرقي أو الانتماء الاجتماعي في حال تعارضه مع الانتماء الديني الأول ، وهو الإسلام هنا .

ونخلص من هذا أن المسلم يمكن أن يكون وفي ذات الوقت بهوية مركبة ، كأن يكون مسلماً من منشأ عربي أو أفريقي أو تركي ، وهو في ذات الوقت أن تكون هويته الاجتماعية أنه مصري أو تونسي أو نيجيري أو روسي أو ماليزي أو صيني أو بريطاني أو فرنسي .

إن الانسجام والتوافق بين هذه الهويات الثلاث من شأنها أن يعين المسلم على تحقيق متطلبات إيمانه وإسلامه ، وفي ذات الوقت تحقيق ارتباطه بالمجتمع الذي يعيش فيه ، وما يمكن أن ينتج عن هذا الارتباط من شعوره بواجباته الخيّرة تجاه هذا المجتمع ، الأمر الذي يحضّ عليه الإسلام أصلاً .

مسلمو أوروبا والعالم الإسلامي :

إن ما ذكرناه من حرص المسلم الأوروبي على خير وصلاح المجتمع الأوروبي الذي يعيش فيه فإن هذا لا ينقص من حرص هذا المسلم وتعلقه بقضايا العالم الإسلامي المختلفة . وكثير من المسلمين الأوروبيين الذين أتوا من المشرق يتطلعون دوماً في كيفية ردّ الخير والجميل لبلاد العالم الإسلامي ، ويتأملون في يوم يستطيعون فيه وضع إمكاناتهم العلمية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمعلوماتية وغيرها في خدمة بلاد المسلمين . (انظر مقالة هجرة الأطباء والفنيين الصحيين من البلاد العربية والإسلامية . الرائد عدد ٢٤٥ عام ٢٠٠٣) .

وكما يقول الأستاذ عصام العطار بأن الفجوة التي تفصل بين الشرق والغرب لم تعد مع تقدم الاتصالات بتلك الفجوة الكبيرة ، وبأن كل تقدم للمسلمين في أوروبا والغرب والعالم هو تقدم للمسلمين في بلاد العالم الإسلامي ، والعكس صحيح أيضاً .

إننا ومع حرصنا على خير المجتمعات الأوروبية فإننا نريدها أيضا أن تنهض لتقوم بدور أكثر نفعاً وعوناً لبلاد العالم ومنها خاصة البلاد الإسلامية . ومن هنا نلاحظ أنه لا تعارض في أن يطلب المسلم الخير للناس كل الناس .

موقف الأوروبيين من مسلمي أوروبا :

هل تشعر المجتمعات الأوروبية من أن المسلمين الذي يعيشون فيها يريدون لها حقيقة الخير والمنفعة والصلاح ؟

سؤال لا بد لنا من الجرأة في طرحه والإجابة عليه . ويبدو من قراءتي لحال العديد من التجمعات الإسلامية في البلاد الأوروبية ، أنه ما زلنا لم نصل إلى أن نُشعر المجتمعات الأوروبية ونقنعها بالواقع والمعايشة بأننا حقيقة حريصون على خيرها وصلاحها وأمنها .

وأدلل على هذا بمثال واحد من واقع الحياة . إذا استعرضنا قائمة أسماء الذين سجلوا أسمائهم في سجلات الانتظار في المشافي المختلفة في بلد أوروبي كبريطانيا ، من أجل التمكن من زرع كلية بسبب مرض أو قصور كلوي لديهم ، فإننا نجد بين الأسماء أسماء إسلامية من رجال ونساء . بينما عندما نستعرض قائمة المتطوعين بالكلى فنجد غياباً واضحاً للأسماء الإسلامية ولا نكاد نجد إلا الأسماء الغربية من غير المسلمين! وقس على ذلك في جوانب أخرى من الحياة الاجتماعية . وهذا بالطبع لا يقلل من الدور الكبير الذي يقوم به معظم مسلمي أوروبا في الجوانب المختلفة للحياة المدنية كالصحة والاقتصاد والتعليم والإعلام والأعمال المهنية والخدمات .

إن علينا أن نراجع بعض مواقفنا ، وأن نحرر بعض المفاهيم التي يحملها كثير من المسلمين عن طبيعة علاقاتهم بالمجتمعات الأوروبية التي يعيشون فيها ، ولنصل من خلال الزمن إلى إشعار المسلم أولاً وغير المسلم ثانياً بأننا نحرص على صلاح وخير هذه المجتمعات ، متذكرين بأن كل خير يعمّ في هذه المجتمعات من محاربة الجريمة والإدمان والرذيلة وغيرها هو في النهاية يخدم مبادئنا الإسلامية ، وما يدعونا الإسلام إلى إقامته في الحياة .

لا بد لصاحب الرسالة في الحياة من أن تربطه بالناس من حوله الكثير من الروابط التي يمكنه من قلوبهم ، وتشعرهم حقيقة بأنه إنما يريد لهم الخير والفلاح . وهكذا كان انتشار الإسلام في كثير من بلاد العالم وخاصة في الشرق الأقصى . ولقد منّ الله على الناس في القرآن بأن أرسل لهم رسولاً يحرص عليهم ويتمنى لهم الخير وقلة العنت فقال تعالى : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ [التوبة : ١٢٨] .